

الترعة الحكيمة في الشعر الجاهلي

غلامرضا كريمي فرد^١، أميد جهان بخت ليلي^٢

تاريخ الوصول: ١٤٣٠/٩/١

تاريخ القبول: ١٤٣١/٥/٦

وردت الحكمة في الذكر الحكيم في عشرين آية من آياته الكريمة مُشاراً إليها بأنها فضل الله و منته يوتيها من يشاء من عباده ... و ما أعظم الحكمة حين تخرج من الشاعر الذي يجمع بين ملكة الشعر و بين نعمة الإيمان فحينئذٍ لشعره أثر السحر.

و الحكمة كما قال الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم) ضالة المؤمن ؛ أمّا دراستنا هذه حول «الحكمة في الأدب الجاهلي» تدور حول ما جادت به قريحة الشعراء من الأشعار في مضمار الحكمة و فضائل أهل الجاهلية و مثلهم العليا، كما اعترفنا فيها بمثالب العصر الجاهلي و بما اتّصف به أهل الجاهلية من السّفه والغلظة والإنقياد وراء الأهواء و مشيرين إلى أنّ الحكمة آنذاك كانت وليدة التجربة المفيدة و البصيرة المستنيرة و الخيال الصافي و الصورة المنتزعة بما يحيط بالشعراء مع سهولة المعنى و جزالة اللفظ و متانة السبك.

الكلمات الرئيسية: الحكمة، الحلم، الصبر، الحزم، القسوة، المداراة، الترعة الإنسانية.

١. أستاذ مساعد بجامعة الشهيد تشرمان في الأهواز

٢. طالب في مرحلة الدكتوراه بجامعة الشهيد تشرمان في الأهواز

المقدمة

العلم هو المعرفة والإطلاع عن كنه وأسرار ما تجبُ معرفته و الحكيمة هي أن توضع المعلومات في مكانها ومقامها المناسب ، و كل حكيم عالم ، و ليس كل عالم حكيماً ، و الحكيمة في الشعر هي ذروة الأدب و قِمة ما تجود به القريحة و عُرف بعض الشعراء بمنظوماتهم الحكيمة، منهم لبيد بن ربيعة (٥٦٠- ٦٦١م)، ذو الإصبع العدواني (؟- ٦٠٠ م)، الأفوه الأودي، عبيد بن الأبرص (٤٥٥- ٥٥٤ م)، زهير بن أبي سلمى (٥٣٠- ٦٢٧م) و حاتم الطائي (؟- ٦٠٥م) و قيس بن عاصم المنقري و

أما الحكيمة فما هي لغوياً وعرفياً؟

قال عنها اللغويون : «لها معنيان رئيسيان : «المعنى الأول : المنع، و المعنى الثاني: الإستحكام و ارتباطها مع هذين المعنيين هو أنها مانعة من الجهل و الأخلاق المذمومة و تطلق على العلم الخالي من الخلل و المحكم الذي لا يقبل الخطأ مطلقاً» (الريشهري، ٨١) «و الحكيمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، و يقال لمن يحسن دقائق الصناعات و يتقنها :حكيم» (ابن منظور، مادة حكم) و«العلم بحقائق الأشياء و العمل بمقتضاها و لهذا انقسمت إلى علمية وعملية، و يقال: هي القوة العقلية العلمية وهذه هي الحكيمة الإلهية» (تاج العروس) وقال عنها المفسرون : «الحكيمة بكسر الحاء على فعلة، إسم نوع يدلّ على نوع المعنى، فمعناه النوع من الأحكام والإتقان، أو نوع من الأمر المتقن الذي لا يوجد فيه ثلمة ولا فتور. و غلب استعماله في المعلومات الفعلية الحقّة الصادقة التي لا تقبل البطلان و الكذب البتّة» (الطباطبائي، ٣٩٥/٢) و «أن يدعوهم إلى الأفعال الحسنة التي لها مدخل في استحقاق المدح و الثواب عليها» (الطوسي، ٤٤٠/٦) «الحكيمة القرآن ... لأنّه يتضمّن الأمر بالحسن و التّهي عن القبيح»

(الطبرسي، ١٣٨/٤) و«هي المقالة الصّحيحة الحكيمة وهي الدّليل الموضح للحقّ المزيل للشبهة» (الزمخشري، ١٣٨/٢). و بالإمعان في أقوال الفريقين- اللّغويين والمفسّرين- يتّضح الاختلاف الكبير بينهما و بالذّات فيما ذهبَ إليه السيد محمّد حسين فضل الله من أنّ ما ذهبَ إليه اللّغويون ليست معاني للحكيمة ... و إنّما يعتبرها مصاديق للمعنى تلتقي بالمعنى الواسع للحكيمة إلّا أنّها - المصاديق- لا تتّصف بما ذكره لها اللّغويون كمعنى حقيقيّ فهو كمفسّر في خلاف مع اللّغويين في المعاني التي تبتّوها لـ «الحكيمة» و السبب «لأنّ مهمّتهم ليست تشخيص المعاني و المفاهيم الحقيقية للفظ، بل مهمّتهم الأساسية هي تشخيص موارد الإستعمال فحسب، وبيان لصحيح منها من الفاسد». (أسلوب الدّعوة في القرآن، محمد حسين فضل الله، ٥٢) ولكنّه مع هذا يعتقد أنّ أقرب أقوالهم إلى لفظ «الحكيمة» و ألصق معنى بها هو: «وضع الشيء في موضعه» أو «صواب الأمر و سداذه» ولكنّه ليس هو نفس المعنى و عليه تلتقي صفة الحكيمة بـ «الخبرة» و «المران» و«التجربة» الأمر الذي يمكنُ إطلاقها على العالم و العادل و الحليم و النبي لإشتمالهم على مبادئ العلم و العدل و الحلم و النبوة التي تساعد على وضع الأشياء في مواضعها في العلم حين يبحث و يفكر ، وفي العدل حين يقضي و يحكم ، و في الحلم حين يعفو و يسامح ، و في النبوة حين يدعو و يبلّغ» (نفس المصدر، ٥٢).

و الخلاصة : أنّ مفردة «الحكيمة» تشير إلى مفهوم «وضع الشيء في موضعه» أو «صواب الأمر و سداذه» إلّا أنّ مبادئها تختلف ، كما أنّ مجالها تتعدّد . و هذا هو ما نفهمه من «الحكيمة» لغوياً أو هو الفهم اللّغويّ لها و يتّضح معناها العرفيّ من خلال معرفة : هل هي محتوى و مضمون ؟ أم هي أسلوب و طريقة ؟ و بالرجوع إلى بعض

التفاسير وُجد أنَّها حاولت أن تجعل من الحكمة مضموناً للدعوة و متعلّقاً لها يتمثّلان بالأمر بالحسن و التّهي عن القبيح، أو بالإتيان بالآيات القرآنية في مقام الدعوة، أو بإقامة الأدلة على الحقّ وهي ممّا لاتنسجم على أن تكون محتوى و مضموناً.

و إذا لم يكن هذا هو المطلوب فما هو إذن ؟

«المراد بالحكمة هو السّير على الطريقة الواقعية، و نعني بها تلك الّتي تلاحظ الواقع الخارجيّ للمجتمع الّذي تعيش فيه، و تدرس ظروفه العقلية و الفكرية و النفسية و الإجتماعية، و تضع كلّ ذلك في حساباتها قبل بداية العمل» (نفس المصدر، ٥٢).

و قد وردَ هذا المعنى في أسلوب آخر هو: «أنّها تمثّل الخطّ العمليّ الّذي يحاول أن يزنَ الأمور بموازينها الحقيقية الّتي تتوازن فيها المبادئ مع واقعية الحركة... لئلا تنحرف المسيرة عن المبادئ باسم الواقعية، أو تبتعد عن الواقع، نحو المثالية، باسم المحافظة على المبادئ و ذلك هو ما نستوحيه من تأكيد القرآن الكريم على الحكمة إلى جانب الكتاب... فيما هو الخطّ المستقيم الّذي تتحرّك فيه النظرية مستوى الخطّ الواقعيّ للتطبيق»، (الحكمة في خط الإسلام، فضل الله، ص ٨).

و بعد الإمام بمعني «الحكمة» اللّغوي والعرفي، نتطرّق الآن إلى الحديث عن الحكمة في الأدب الجاهليّ. المعروف عن العصر الجاهلي أنّه عصر جهل و شرك و وُصفَ أهلُه بالسّفه و القسوة و الغلظة و الإنسياق وراء الأهواء و الأحقاد... لذلك قد يبدو مستغرباً أن نتحدّث عن الحكمة في عصرٍ سُمّي بالعصر الجاهلي.

سابقة البحث: طبعاً لم يكن مجال «الحكمة في الشعر الجاهلي» خالياً من الأبحاث بشكل عام نحو ما كُتب عن الحكمة في الشعر زهير او النابغة وغيرهما من الشعراء

الجاهليين في كتب تاريخ الأدب العربي مثلما قال شوقي ضيف في كتابه وغيره و كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني و كذلك شروح دواوين الشعراء الجاهليين و في ايران مثلما قال الدكتور آذر شب في كتابه في الأدب العربي و تاريخه حتّي نهاية العصر الأموي و الكتب و المقالات لغيره نحو ما جاء في مقالة لمؤلف هذه الدراسة «زهير بن أبي سلمي و أسلوبه المدحي» نشرت في مجلة آفاق الحضارة الرقم ٢٣، ولكن لم يُشاهد مقال يدرسُ هذا الموضوع بالضبط أو ما يقاربه أي «الترعة الحكيمية في الشعر الجاهلي» و الجديد في هذا البحث ربما يتخلص في تركيزنا حول موضوع هذه الترعة في شعر العصر الجاهلي خاصة حيث لم يعتن به أحد بشكل مركز قبلاً.

و أما بالنسبة إلى منهج البحث في هذه الدراسة فإنّه وصفي - تحليلي يقوم على «الطريقة المكتبية» الّتي تُبنى على مطالعة الكتب و المقالات الّتي تطرقت إلى هذا الموضوع بصورة متفرقة أمثال الكتب الّتي أشرنا إليها آنفاً و الكتب الأخرى ثمّ مراجعة دواوين الشعراء، وللتأكّد من صحّة الأشعار في ديوان ما راجعنا عدّة طبعات منه؛ و خلال الدّراسة حصلنا على نتائج عدة قدّمناها في نهاية البحث.

و نحن بدورنا نُقرّ بمثالب العصر الجاهليّ، و بما اتّصف به العربي الجاهلي، من تعسّف و جفاء و ميل شديد إلى القسوة و... أو ما أصاب الحياة في تلك الحقبة من وهن و نزيف و إختلال من جرّاء هذه المثالب و من جرّاء الحروب القبلية و نزعات الثأر، أو بتأثير من معتقدات و مفاهيم أعراف و علاقات اجتماعية مختلفة.

فالشعر الجاهلي يؤيد ذلك الخلل الفاضح في حياة العرب قبل الإسلام، و يصوّر لنا مآزق الحياة الّذي ولّدته مثالب الجاهلية وأعرافها المتخلّفة. بيد أن هذه الصورة، ليست هي الصورة الوحيدة لحياة عرب الجاهلية، بل ليس

و نشاهد زهير بن أبي سلمي، يبلور هذه الصفات في
مديح هرم بن سنان مُشيداً بخصال هذا الزعيم المصلح:
ولأنت أوصل ما علمتُ به
لشوابك الأرحام و الصَّهرِ
حامي الذمار على محافظةٍ
الجلِّي أمينُ مُغيِبِ الصِّدرِ
حَدِبٌ على المولى الضَّرِيك إذا
نابت عليه نوائبُ الدَّهرِ
و مُرَهَّقُ النيرانِ يحمي في
اللأواء غيرُ مُلَعَنِ القدرِ
متصرِّفٍ للمجد ، معترِفٍ
للتائبات ، يراخُ للذكرِ
جلدٌ يَحُثُّ على الجميع إذا
كَرِهَ الظَّنُونُ جوامعَ الأمرِ
والسُّرُّ دون الفاحشات و ما
يلقاك دون الخير من سترٍ
(الديوان، ٢٨-٢٩).

فالقِيادة في نظر الشاعر مسؤولية كبيرة لا يجوز أن تناط بمن
لاتوفّر فيه شروطها و مقوماتها ، من مؤهلات و تفوّق
وإستعداد دائم للتحمّل و التجلّد و التضحية من أجل الآخرين.
فهزم في هذه الأبيات خليق بالقيادة، لأنّه حليم واصل
لرحم و للقرابة، شجاع متحفّظ، كاتم للسرّ، عطوف،
كريم، حكيم، صبور، حريص على وحدة قومه و تماسكهم
يستر القبيح، و يظهر فضله و خيره للجميع. والشاعر
الجاهلي لا يرتقي إلى مرتبة شاعر القبيلة و الناطق باسمها
أوالمعبّر عنها ما لم يعبّر شعره عن معاني الحكمة و سداد
القول و الفعل؛لعلّ ذلك يفسّر لنا انتشارالحكمة، حتّي في
شعرعددٍ من الشعراء الذين لم يعرفوا بالحكمة و الحلم و
التعقّل ، بل عُرفوا بالقسوة و الفتك و نزعة الإنتقام كعامر بن

من الإنصاف، أن تحجبَ هذه الصورة بقتامتها كل ما
عداها من جوانب أو صور الحياة المختلفة الأخرى. غير أنّ
الشعرالجاهلي ينقل كذلك فضائل أهل الجاهلية و مثلهم
العليا كما ينقل مثالبهم و يظهر لنا مباحاة العربيّ الجاهلي و
مفاخرته بالفضائل و مدى تعلّقه وإعجابه بالحكمة والحلم
و التعقّل والعدل والإنتصار للحقّ و مجانبه الظلم، بل إنّ
الدعوة في الشعرالجاهلي إلى هذه الفضائل، تكاد تغلب
دعوات التطرّف والقسوة و الجور و الإستثثار و حبّ
الإنتقام. و كانتِ الحكمة هي الشرط الأوّل في الوصول
إلى السّيادة في القبيلة أو السّيادة في الشعر. فالقبيلة لم تسودّ
عليها إلّا من أحكمته التجارب و هذّبه الحلم وسعة الصِّدر
و شهد له الجميع بالتعقّل و الأناة و بعد النظر و
سدادالرأي... . لذلك نلاحظ الخطيئة أحد شعراء الجاهلية
يمتدح مؤهلات القيادة في آل شماس فيصفهم بما يوصف به
الحاكم الصالح من حلم و تعقّل و استقامة و سداد في
القول و الفعل و حزم و أناة، كما في الشعرالمنسوب إليه:

يسوسون أحلاماً بعيداً أنأثها
وإن غضبوا ، جاء الحفيظة والجُدّ
أولئك قومٌ إن بنوا أحسنوا البنى
وإن عاهدوا أوفوا، وإن عقدوا شدّوا
وإن كانت النعماء عليهم جزّوا بها
وإن أنعموا لا كدّروها ولاكدّوا
و إن قال مولاهم على جُلّ حادث
من الدَّهر، رُدُّوا فضل أحلامكم رَدُّوا
مغاويرُ أبطالٍ، مطاعيمُ في الدّجي
بنى لهم آباؤهم و بنى الجدّ
(الديوان، ٥٥).

الطفيل و الشنفرى و ... أو اشتهروا بالعبث و الإستهتار و الإنصراف إلى المذات كامريء القيس و لذلك نلاحظ عامرين الطفيل أحد فرسان الجاهلية المشهورين بالقسوة و العنف، يتباهى بحكمته و حلمه و سداد رأيه و عدله وقد ساد قومه، على حدّ قوله بفضل هذه المؤهلات و الصفات، فقبيلته لم تسوّد عليها بالوراثة أو بالتسبب بل بالجدارة و الكفاءة، كما في الشعر المنسوب إليه:

وإني و إن كنتُ ابن سيد عامرٍ
و فارسها المندوب في كل موكبٍ
فما سوّدتني عامرٌ عن وراثةٍ

لكنني أحمي حماها و أتقي
أي الله أن أسمو بأمّ و لا أبٍ

أذاها و أرمي من رماها بمنكبٍ
(الديوان، ١٣).

كما يقول في موضع آخر:
فإن لنا حكومة كل يومٍ

وإني سوف أحكم غير عادٍ
يبين من مفاصله الصوابُ

ولا قدحٍ ، إذا التمس الجوابُ
حكومة حازم لا عيب فيها

إذا ما القوم كظّهم الخطابُ
فإن مطية الحلم التائي

على مهل و للجهل الشبابُ
(البستاني، ٢٩٦/١).

و حتّى الشنفرى الشاعر الفاتك الصعلوك يجد لديه ما يفاخر به من الحكمة و السجايا و الخصال الحميدة من حزم و عفة و إقدام و مجافاة لكل ما يعيب، و إنّ من يقرأ لاميته المشهورة، يخال أنّه أمام أحد الحكماء و الحكماء، كما ورد في الشعر المنسوب إليه:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القلي متعزّل
لعمرك ما بالأرض ضيق على امريء
سري راغباً أو راهباً، وهو يعقل
أديم مطال الجوع حتّى أميته
و أضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
و أستفّ ترب الارض كي لا يرى له

على من الطول امرؤ متطول
ولولا اجتناب الدّام، لم يلف مشرب
يعاش به ، إلّا لدي و مأكّل

ولكنّ نفساً مرّة لا تقيم بي
على الضيم، إلّا ريشما أتحوّل

و أعدم أحياناً و أغني، وإنّما
ينال الغنى ذو البعدة المتبدّل

فلاجزع من خلة متكشف
ولامرخ، تحت الغنى أتخيل

ولا تزدهي الأجهال حلمي ولا أرى
سؤلاً بأعقاب الأقاويل أتمل

(المصدر نفسه، ٥/١).

و كذلك شعر امريء القيس، شاعر العبث و الجون و الإنقياد للشّهوات، يعبر أحياناً عن الحكمة و عمق الرؤية التأملية و الإحساس العميق بعبث الوجود وهشاشته، حتّى كأن رحلته العابثة الماجنة قد انتهت به إلى الحكمة و التصبّر. يقول و كأننا أمام حكيم متأمل مشغول بحقائق الوجود الكبيرة :

أرانا موضعين لأمر غيب
و نُسحر بالطعام و بالشراب
عصافير و ذبّان و دود

و أجرأ من مجلّة الذئاب
(الديوان، ٢٠٣).

و كما في قوله عن سرعة انطفاء الحياة و الأشياء :

كأنّي لم أركب جواداً للذة

و لم أتبطّن كاعباً ذات خلخال

و لم أسبأ الرّقّ الرويّ و لم أقل

لخيلي كرى، كرتة بعد إجفال (الديوان، ٦٢).

كما أنّ الشاعر العربيّ الجاهلي «الأسود بن يعفر النهشلي» من الشعراء الذين نادموا الملك النعمان يذكرنا في شعره بالصورة التي صور بها القرآن الكريم الدنيا : « و اضرب لهم مثل الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح ... »، [الكهف؛ ٤٥]:

أين الذين بنوا فطال بناؤهم

و تمتّعوا بالأهل و الأولاد

فإذا التّعيم و كلّ ما يلهي به

يوماً يصيرُ إلى بلى و نفاذ

ماذا أوّمل بعد آل محرّق

تركوا منازلهم و بعد إياد

أهل الخورنق و السدير و بارق

و القصريّ الشرفات من سنداد

(البستاني، ٣٤٩/١).

الذي يهمنّا في أقوال هؤلاء الشعراء هو أنّ مثل هذه المباهاة أو المفاخرة بالحكمة و العفة و سداد الرأي تُفصح عن مدى إعجاب العربيّ الجاهلي و افتتانه بالحكمة و الفضائل، حتّى و لو كان بعضهم يفتقر إلى ما يفاخر أو يتباهى به. ولكنّ الذي يلفت نظرنا هو أنّ الحكمة في الشعر الجاهلي تتجلّى في صور و أشكال مختلفة، منها في الحلم ؛ والقسوة والشدة ؛ والتعامل بالمثل؛ والحزم و الإتقان ؛ والصبر و الكتمان؛ والمصانعة و المداواة...و نحن الآن نتطرّق إليها واحدة تلو الأخرى:

الحلم في الحكمة في الشعر الجاهلي

الحلم صفة من صفات الله سبحانه و تعالى و عمود من أعمدة الخلق الإسلامي، قال الإمام علي (ع):

«الحلم عشيرة» (الدشتي، ح: ٤١٨)؛ «الحلم و الأناة

توأمان ينتجهما علوُ الهمة» (المصدر نفسه، ح: ٤٦٠).

نعم ؛ يتّضح من تتبّع بعض جوانب الحكمة في الشعر الجاهلي و تنوعاتها، أنّ نزعة إصلاحية و إنسانية كانت تنمو و تقوى، قبل ظهور الإسلام، يمثّل هذه النزعة طائفة من الشعراء تُتصفوا بالحلم و العقل و الرأفة و الإيثار و الميل إلى المسالمة و الإحساس العميق بالمسؤولية و الرغبة الملحة في إصلاح مفاصل المجتمع فقد كرّسوا في شعرهم هذه المفاهيم العالية و جندوا شعرهم و حكمتهم لإصلاح البناء الاجتماعي و لتعزيز المفاهيم و القيم الأخلاقية و الإنسانية. و لذلك نلاحظ مثلاً حاتم الطائي، أحد حكماء العرب في الجاهلية، يرى أنّه لا يمكن معالجة الأحقاد و استئلال الضغائن من الصدور أو إطفاء نار الفتنة و الحروب، إلّا بالحلم و التروي أو بحمل النفس على التحلّم، فاللجوء إلى الحلم و كفّ الأذى كفيلاً بترع فتيل الضغائن و الأحقاد و إبطال طاقتيهما المدمرة، كما روي عنه:

تحلّم عن الأذنين و استبقِ و دهم

و لن تستطيع الحلم حتّى تحلّما

متي ترق أضغان العشيرة بالأني

و كفّ الأذى، يحسّم لك الداء محسما

(البستاني ٣٠٦/٢).

و يتباهى معن بن أوس بحلمه و سعة صدره و تسامحه، مشيراً إلى دور الحلم و أثره في معالجة الأحقاد و تقليم أظفار الكراهية و البغضاء، التي كانت السبب الرئيس في نشوب الحروب، كما في الشعر المنسوب إليه:

و ذي رَحِمٍ قَلَمْتُ أَظْفَارَ ضَعْفِهِ

بِحِلْمِي عَنْهُ، وَ هُوَ لَيْسَ لَهُ حِلْمٌ
يُحَاوِلُ رَغْمِي، لَا يُحَاوِلُ غَيْرَهُ؛

وَ كَالْمَوْتُ عِنْدِي أَنْ يَحِلَّ بِهِ الرَّغْمُ
فَإِنْ أَعَفُ عَنْهُ أَغْضِي عَيْنًا عَلَى قَدَى

وَ لَيْسَ بِهِ بِالصَّفْحِ عَنْ ذَنْبِهِ عِلْمٌ
إِذَا سُمِّتُهُ وَصَلَ الْقَرَابَةَ، سَامِي

قَطِيعَتَهَا، تِلْكَ السَّفَاهَةُ وَ الْإِثْمُ
فَمَا زِلْتُ فِي لَبْنِي لَهُ وَ تَعَطَّفِي

عَلَيْهِ، كَمَا تَحْنُو عَلَى الْوَلَدِ الْأُمُّ
لَأَسْتَلَّ مِنْهُ الضَّغْنَ حَتَّى اسْتَلْتُهُ

وَ قَدْ كَانَ ذَا ضَغْنٍ يَصُوبُهُ الْحَزْمُ
وَ أَبْرَأْتُ غِلَّ الصَّدْرِ مِنْهُ تَوْسَعًا

بِحِلْمِي، كَمَا يُشْفَى بِالْأَدْوِيَةِ الْكَلَمُ
(المصدر نفسه، ٥٦/٢).

لَسْنَا هُنَا، أَمَامَ حَكِيمٍ وَ مُصْلِحٍ وَ شَاعِرٍ حِلْمٍ فَحَسَبَ،
بَلْ نَحْنُ أَمَامَ طَبِيبٍ نَفْسِيٍّ مَاهِرٍ، يِعَالِجُ أَكْثَرَ الْأَمْرَاضِ وَ
أَخْطَرَهَا فَتَكَاً وَ تَدْمِيرًا لِلْإِنْسَانِيَةِ الْإِنْسَانِ ...

وَ يَمْتَدِّحُ زَهْرَ بْنَ أَبِي سَلَمَى حَصَنَ بْنَ حَذِيفَةَ بْنَ بَدْرٍ،
بِأَحَبِّ خَصْلَةٍ يَفَاخِرُ وَ يِعْتَزُّ بِهَا الْعَرَبِيُّ:

وَ ذِي خَطَلٍ فِي الْقَوْلِ يَحْسَبُ أَنَّه
مُصِيبٌ، فَمَا يَلْمُ بِهِ، فَهُوَ قَائِلُهُ

عَبَاتَ لَهُ حِلْمًا وَ أَكْرَمَتْ غَيْرُهُ
وَ أَعْرَضَتْ عَنْهُ وَ هُوَ بَادٍ مَقَاتِلُهُ

(الديوان، ٥٩).

وَ حِينَ يَرِثِي كَعْبَ بْنَ سَعْدِ أَخَاهُ، أَبَا الْمُغَوَّارِ، لَا يَجِدُ فِي
سَجَايَاهُ وَ خَصَالِهِ الْحَمِيدَةِ فَضِيلَةً أَوْ صِفَةً أَجْمَعَ لِلْفَضَائِلِ مِنْ
الْحِلْمِ، فَيَكْرُرُ إِشَادَتَهُ بِحِلْمِهِ وَ أَنَاتِهِ وَ صَبْرِهِ عَلَى الْمَكَارِهِ:

لَقَدْ كَانَ، أَمَّا حِلْمُهُ فَمَرَّوْحُ

عَلِيٍّ وَ أَمَّا جَهْلُهُ فَعَزِيبُ
أَخِي، مَا أَخِي، لَا فَاحِشٌ عِنْدَ رِيْبِهِ

وَ لَا وَرَعٌ، عِنْدَ اللَّقَاءِ، هَيُوبُ
حَلِيمٍ، إِذَا مَا سُورَةُ الْجَهْلِ أُطْلِقَتْ

حُبِّي الشَّيْبِ، لِلنَّفْسِ اللَّجُوجِ غُلُوبُ
هُوَ الْعَسَلُ الْمَازِي حِلْمًا وَ شِيمَةً

وَ لَيْثٌ، إِذَا لَاقِيَ الْعِدَاءَ، قَطُوبُ
غِيَاثٌ لِعَانٍ لَمْ يَجِدْ مِنْ يَغِيثِهِ

وَ مُحْتَبَطٌ، يَغْشَى الدَّخَانَ، غَرِيبُ
حَلِيمٌ، إِذَا مَا الْحِلْمُ زَيْنَ أَهْلِهِ

مَعَ الْحِلْمِ، فِي عَيْنِ الْعَدُوِّ، مَهِيبُ
(البستاني، ٣٥٥/١).

وَ رُوِيَ عَنْ تَمِيمِ بْنِ مِقْبَلٍ فِي فَضِيلَةِ الرَّفْقِ وَ التَّروِّيِّ
وَهُمَا مِنْ صِفَاتِ الْحَلِيمِ:

خَلِيلِي لَا تَسْتَعْجَلْ وَ انْظُرْ أَغْدَاً
عَسَى أَنْ يَكُونَ الرَّفْقُ فِي الْأَمْرِ أَرْشَادَا
(نهاية العرب، ٩٥/٧).

نَعَمْ؛ هَذَا الْإِعْجَابُ الْمَفْرُطُ بِالْحِلْمِ وَ مَا يِرَافِقُ الْحِلْمَ أَوْ
يَتَفَرَّعُ عَنْهُ مِنْ صِفَاتٍ وَ مَعَانٍ وَ مَدْلُولَاتٍ، لَا يُمْكِنُ فَهْمُهُ، أَوْ
تَفْسِيرُهُ، إِلَّا فِي سِيَاقِ حِرْصِ الشَّاعِرِ الْجَاهِلِيِّ الْحَكِيمِ عَلَى
حِمَايَةِ الْحَيَاةِ وَ صِبَاغَتِهَا مِنْ مَخَاطِرِ السَّفْهِ وَ الْإِسْرَاعِ وَ الْإِحْتِكَامِ
إِلَى الْعَصْبِيَّةِ وَ الْأَهْوَاءِ، الَّتِي كَانَتْ تَلْحَقُهَا بِالنَّاسِ وَ الْحَيَاةِ.

فَالْحِلْمُ لَدَى الشَّاعِرِ الْجَاهِلِيِّ، لَيْسَ مَقُولَةً كَلَامِيَّةً وَ لَيْسَ
بِمَجْرَدِ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ السِّيَادَةِ وَ الرَّعَامَةِ، أَوْ مَوْضُوعاً
لِاِكْتِسَابِ الشُّهُرَةِ بَلْ هُوَ حَاجَةٌ مُلِحَّةٌ وَ وَسِيلَةٌ مِنْ وَسَائِلِ
إِنْقَازِ الْحَيَاةِ وَ صِبَاغَةِ الْمُجْتَمَعِ مِنْ مَخَاطِرِ الْجَنُوحِ وَ التَّسَرُّعِ، وَ
كَذَلِكَ الْحِكْمَةُ فِي الشُّعْرِ الْجَاهِلِيِّ، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ تَرْفَافاً أَخْلَاقِيّاً
أَوْ طَقْساً اجْتِمَاعِيّاً أَوْ مَجْرَدَ مَقُولَاتٍ نَظَرِيَّةٍ مُعْزُولَةٍ عَنْ

حقائق الحياة و الواقع، بل هي ضرورة من ضرورات الحياة و سياج لحمايتها و شرط من شروط معالجة تناقضها و اختلالها، و نلاحظها لاتقف عند حدود الحُضّ على الفضائل و القيم الإنسانية و الدعوة إلى الإصلاح، بل تسعى إلى التكامل من خلال دعوتها إلى مجانبة البغي و الظلم و القسوة و التسرع و الشطط و هي في دعوتها المزوجة هذه لاتقدم معانٍ مجردة للفضائل و المثل العليا، أو مواعظ معزولة عن الأحداث و الواقع بل تنقل لنا أمثلة حية و تجربة عميقة صادقة، مستقاة من الواقع و الأحداث، كما نرى ذي الإصبع العدواني، يعرض علينا مأساة قومه بني عدوان، حين قادهم السّفْهُ و نزعة الغي، إلى حرب إفناء و إذلال، بعد قوة و منعة و تميز بالحكمة و الحلم، كما جاء في الشعر المنسوب إليه:

عذير الحي من عدوا

ن كانوا حية الأرض

بغى بعضهم على بعضٍ

فلم يبقوا على بعض

فقد صاروا أحاديث

برفع القول و الخفض

و منهم كانت السادا

تُ و الموفون بالقرض

و منهم حكم يقضي

فلا ينقض ما يقضي

(الأصفهاني، ٩٢/٣).

و غالباً ما كانت الحكمة وليدة الإحساس بالظلم و سلامة النظرة الخاصة أو الرؤية الذاتية المستمدة من طول تأمل الواقع المحيط، و هذا ما يبدو من الشعر المنسوب إلى طرفة بن العبد في هذا الشأن:

قد يبعثُ الأمر العظيم صغيره

حتى تظلّ له الدماء تصبُّ

والظلمُ فرّقَ بين حيي وائل

بكرُ تُساقِها المنايا تغلبُ

قد يورد الظلم المبين آجناً

ملحاً يخالط بالزّعاف و يقشب

وقراف من لا يستفيق دَعارةً

يعدي كما يعدي الصحيح الأجرُ

والصدق يألفه اللّيب المرتجي

والكذب يألفه الدي الأخيْبُ

ولقد بدا لي أنّه سيغولني

ما غالَ عاداً و القرون فأشعبوا

أدوا الحقوقَ تفرّ لكم أعراضكم

إنّ الكريم إذا يجرّب يغضب

(الديوان ص ٩).

القسوة و الشدّة في الحكمة في الشعر الجاهلي

يبدو أنّ الحكيم الجاهلي الذي يدعو إلى اللين و التسامح و الصّفح و العدل؛ قد يدعو إلى موقف مغاير و هو القسوة و الحزم و حتّى إلى الظلم إستجابة لمتطلبات الحياة و ضرورتها و حاجاتها، كما ورد في الشعر المنسوب إلى الحصين بن الحُمام المُرّي و هو يفتخر بحزمه و سداد رأيه و قدرته على التكيف مع المتغيرات و مع متطلبات الحياة:

و لما رأيتُ الدّ ليس بنافعي

و أن كان يوماً ذا كوكب مظلما

صبرنا و كان الصبرُ منّا سجيةً

بأسيافاً يقطعن كفّاً و معصما

يَفْلَقْنَ هَاماً مِنْ رِجَالٍ أَعَزَّةٍ

علينا و هم كانوا أعقّ و أظلمنا
(المفضّليات، الضّبي، ١٠٤).

الحكمة هنا تتطلّب القسوة و الشدّة، مادام الصبر و
الودّ لم ينفعا في دفع الشرّ و ردّ الظلم، بل إنّ الحكمة تبرّر
الشرّ و تبيحه و تدعو إلى إستخدام العنف، إذا أخفق
الصّفح و الحلم و التسامح في دفع الشرّ و تجنّب اللّجوء إلى
العنف، كما روي عن الفند الزّماني في هذا المعنى:

صفحنا عن بني ذهل

و قلنا: القوم إخوان

عسي الأيام أن يرجع—

نَ قوماً كالذي كانوا

فلماً صرّح الشرّ

فأمسى و هو عريان

و لم يبق سوى العدوا

ن دناهم كما دانوا

و بعض الحلم عند الجهم—

—ل للذّة إذعان

و في الشرّ نجاة حيـ

ن لاينجيك إحسان

(حماسة أبوتام، ٢٠/١ - ٢١).

فاللّجوء إلى الشرّ في مثل هذه الحالة لم يعد مباحاً في
نظر الحكيم الجاهلي فحسب، بل أصبح قارب نجاة و
ضرورة يملّحها الواجب تجاه الحياة، كما تحتملها مشروعية
الدفاع عن النفس.

و حتّى زهير بن أبي سلمى شاعر المسالمة و الصّفح و
التحلّم، يبرّر الظلم أحياناً، بل يدعو إلى استخدامه أو
التلويح به، لردع الظلم و دفع العدوان، باعتباره نوعاً من

أنواع الحرب الوقائية، أو وسيلة من وسائل حماية صفو الحياة
و منع اتّساع رقعة الشر، يقول في هذا المعنى:

و من لم يذدّ عن حوضه بسلاحه

يهدم، و من لا يظلم الناس يُظلم
(الديوان، ٧٣).

و يقول الشاعر الناقد و الحكم في سوق عكاظ التابعة
الذيبياني في القوّة:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له

و تحتمي مريض المستأسد الحامي

(الديوان، ١٣٠).

وكما روي عن كعب بن سعد الغنوي:

و لا يلبث الجهال أن يتهضموا

أخا العلم ما لم يستعنّ بجهول

(حماسة البحتري، ١٦٨).

مبدأ التعامل بالمثل في الحكمة في الشعر الجاهلي

من الواضح أنّ الحكمة في الشعر الجاهلي التي أباحت
استخدام القسوة و الظلم و الحق كسلاح يدفع الظلم و
يردع القسوة، لم ترفع من شأن الظلم و القسوة و لم
تسقط عنها الصّفة البغيضة المستنكرة... و لم تنزل عن
أصحابها صفة الظلم... حتّى في حالة الدفاع عن النفس،
بل الحكمة في الشعر الجاهلي تدعو إلى مبدأ التعامل بالمثل
و مجازاة الخير بالخير و الشرّ بالشرّ و هي في دعوتها هذه،
حكمة متوازنة تنسجم في واقعيتها مع ضرورات و
متطلّبات الحياة و مع القوانين و الأعراف الدّولية و مع
التعاليم السماوية، كما أقرّ القرآن الكريم مبدأ التعامل
بالمثل: «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى

عليكم» (البقرة، ١٩٤)؛ «و كتب عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن» (المائدة، ٤٥).

ونُسب إلى الشاعر الجاهلي أوس بن حجر:

وعندي قروض الخير والشر مثله

فيؤسي لدى يؤسي ونعمي لأنعم

(الديوان، ١٢١).

كما يقول لبيد بن ربيعة:

وإن تسألن بي، فأني امرؤ

أهين اللئيم وأحبو الكريما

وأجزى القروض وفاء بها

بيؤسي بئيساً ونعمي نعيما

(الديوان، ٢١٠).

و يصور لنا قيس بن الخطيم حرباً حاطباً نشبت بين الأوس والخزرج:

دعوت بني عوف لحقن دماهم

فلما أبوا ساحت في حرب حاطب

و كنتُ امرأ لا أبعث الحرب ظالماً

فلما أبوا أشعلتها كل جانب

أربت بدفع الحرب حتى رأيتها

عن الدفع لاتزداد غير تقارب

(الديوان، ٨٠-٨١)

الحزم والإتقان في الحكمة في الشعر الجاهلي

إحدى صفات الحكيم الجاهلي، هي الحزم والإتقان والقدرة على التكيف وعلى التجاوب مع متطلبات الحياة و ضروراتها والتعامل مع الممكن وتجنب المستحيل ما لم يكن له نصيب من الممكن واحتمالات التجاح. كما يقول الأعشي:

إذا حاجة ولتلك لاتستطيعها

فخذ طرفاً من حاجة حين تسبق

فذلك أدنى أن تنال جسيمها

وللقصد أجدى في المسير والحق

(الديوان، ٢٤٣/١).

وكما نُسب إلى عمرو بن معدي كرب:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه

و جاوزة إلى ما تستطيع

(الأصفهاني، ٢٤٣/١٥).

نعم كما نلاحظ؛ هذه الدعوة إلى الأخذ بالممكن و تجاوز المستحيل إلى ما هو مستطاع هي صورة مغايرة لصورة العربي الجاهلي المتهم بالتعسف والتطرف و البعد عن العقل.

ثم إن الحزم والإتقان في الحكمة في الشعر الجاهلي هما معيارا الوعي و سلامة الحواس و التوازن الذهني سواء كان الإتقان في القول أو في الفعل؛

يقول الخطيب في مديح آل شماس، فيصفهم بسداد الرأي

و إحكام الأمور و إتقان الفعل:

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنى

وإن عاهدوا أوفوا و إن عقدوا شدوا

وإن كانت النعمي عليهم جزوا بها

و إن أنعموا لاكدروها و لاكدوا

(الديوان، ٥٥).

ويقول تائب شرّاً:

إذا المرء لم يحتل و قد جدّ جدّه

أضاع وقاسى أمره و هو مدبر

ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلاً

به الخطب إلا و هو للقصد مبصر

(البستاني، ١٦/١).

و يقول أبوأذينة في الحزم و الإتقان:

و أحزمتُ الناس من إن فرصةً عرضت

لم يجعل السببَ الموصولَ منقضباً

و أنصفُ الناس في كل المواطن من

سقى المعادينَ بالكأس الذي شرباً

لاتقطعن ذنب الأفعى و تُرسلها

إن كنتَ شهماً فأتبِعْ رأسها الذنباً

(المصدر نفسه، ١/٢٦٤).

و يفاخر قيس بن الخطيم بصبره على مكاره الحروب:

و ليس أخو الحرب الشديدة بالذي

إذا زينتُهُ، جاء للسلم أخضعاً

أخو الحرب لايتأذ للحرب متته

ولا يظهرُ الشكوى و إن كان مُوجعاً

(حماسة البحتري، ٣٤).

و في كتمان السرِّ، نُسب إلى الشاعر الفارس و البطل

المغوار في موقعة «القادسية» أبو محجن الثقفي:

لاتسألي الناسَ عن مالي و كثرته

وسألي القومَ عن بذلي و عن خلقي

قد يعلمُ القومُ أنّي من سراقهم

إذا سَمَا بصراً الرعديدة الفرقِ

وأكشفُ المأزقَ المكروبَ غمته

و أكتُمُ السرِّ فيه ضربة العُنقِ

و قد أجودُ و ما مالي بذِي فَعِ

و قد أكرُّ و راءَ المُحجرِ البرقِ

نلاحظُ الشاعرَ يجودُ بماله رغمَ حاجته اليه ولكنه

«بالسرِّ» شحيحٌ ضنينٌ إذا استودعه أحدٌ هذه الأمانةَ

الغالية، كما أنه يرى أن يكون في إفشائه ضرب الأعناق.

و في كتمان السرِّ و حفظ اللسان يقول إمرئ القيس:

إذا المرء لم يحزن عليه لسانه

فليس على شيءٍ سواه بخزانٍ

(الديوان، ٣٤).

الصبر و الكتمان في الحكمة في الشعر الجاهلي

أحياناً نجد دعوة الشاعر الجاهلي إلى الحزم و الإتقان تدخل

في إطار واقعي للحكمة الجاهلية، فالحزم في الحكمة في

الشعر الجاهلي يعني القدرة على وضع الأمور في موضعها

الصحيح، و بهذا القياس يمكن اعتبار الصبر و الحذر و

كتمان السرِّ و القسوة عند الحاجة و اغتنام الفرص عندما

تسبح، نوعاً من أنواع الحكمة و الحزم، كما يقول الشاعر

الصابر المؤمن أبوذؤيب الهذلي في حكمة الصبر و التجلّد، و

قد امتحنَ بمصيبه تميد لها الجبال الراسيات، و لكنّها لم

تزعزع له إيماناً، و لم تصدع له كبداً... بل وقف منها

موقف الصابر المحتسب فقد مات بنوه الخمسة في الطاعون:

أمن المنون و ريبها تتوجّع

و الدهر ليس بمعتبٍ من يجزّع

و لقد حرصتُ بأن أدافع عنهم

و إذا المنية أقبلت لاتدفعُ

و تجلّدي للشّامتين أريهم

أنّي لريب الدهر لاتضعضعُ

حتّى كأتني للحوادث مروّة

بصفا المشرق كلّ يومٍ تفرّعُ

(المصدر نفسه، ٢/٧٠).

المصانعة و المداراة في الحكمة في الشعر الجاهلي

يبدو أنّ الشاعر الجاهلي يرى أنّ في المصانعة و المسايرة و

الجمالة، و إخفاء مشاعر العداوة و البغضاء نوعاً من أنواع

الحكمة و سداد الرأي؛ أمّا من وجهة الإسلام فإنّ الرسول

(صلى الله عليه و آله و سلّم) يقول: «رأس العقل

المدارة» (ميرزاوي، ٥١)؛ «مُدَارَةُ الناسِ نصفُ الإيمانِ و الرِّفقُ بهم نصفُ العيش» (المصدر نفسه، ٤٤٨).

كما يقول الإمام علي (عليه السلام) في هذا الشأن، «مقاربةُ الناسِ في أخلاقهم أمنٌ من غوائلهم» (دشّي، ح: ٤٠١). أمّا الحكيم الجاهلي فنراه يبالغ أحياناً في دعوته إلى مصانعة الأعداء الأقوياء و مدهانتهم و مسالمتهم، ريثما تحين الفرصة المواتية للمكاشفة و المواجهة و المواجهة، كما يقول الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى:

و من لا يُصانعُ في أمور كثيرة

يضرّسُ بأنياب و يوطأ بمنسم
(الديوان، ٨٧).

و يقول المتلمّس في حكمة المهادنة و المدارة ريثما تحين الفرصة المواتية:

وأطرق إطراق الشّجاع ولو يرى

مساغاً لناييه الشّجاعُ لصمّما
(البستاني، ١/١٨٨).

وُنسب إلى معن بن أوس المزنيّ:

أكاشرُ ذا الضغن المبين ضغنهُ

و أضحك حتّي يظهرِ الناب أجمع

و أدهنهُ بالقول دهنًا و لو رأى

سريرة ما أخفي لبات يفزُع
(حماسة البحتري، ١٤).

التزعة الإنسانية في الحكمة في الشعر الجاهلي

ونلاحظ فيما سبق كيف تلتقي الحكمة في الشعر العربي الجاهلي، بل كيف تندمج أحياناً بالتزعة الإنسانية و بكل ما يميزها من مشاعر الرحمة و الحنان و الرأفة و الإيثار و الحذب، و الإحساس بالمسؤولية حيال الآخرين سواء في القول أو في الفعل، ...

كما نُسب إلى عبيد بن الأبرص في مجمرته الحكيمة:

إذا كنتَ لم تعباً برأي و لم تُطع

لنصح ولا تُصغي إلى قول مرشدٍ

فلا تتقي ذمّ العشيرة كلّها

و تدفع عنها باللسان و باليد

و تصفح عن ذي جهلها و تحوطها

و تقمع عنها نخوة المتهدّد

و تتزل عنها بالمكان الذي به

يري الفضلُ في الدنيا على المتحمّد

فلستَ و إن علّلت نفسك بالمني

بذي سُوددٍ بادٍ، و لا كرب سيدٍ

(الديوان، ٥٨).

لقد ارتقت هذه التزعة لدى بعض عرب الجاهلية و بعض شعرائها قدراً من التعاطف و السموّ، يصعب تصديقهُ، فقد تجاوزت عاطفة هؤلاء المصلحين مجتمعهم البشريّ، لتشمل الوحوش و الطير و الأشياء في الصحاري، بنظرة عطوف حانية نادراً نجدُ لها نظيراً أو مثيلاً في الشعر الإنسانيّ جميعه... .

يروى عن الشاعر النجاشي، في قصّة له مشهورة مع ذئب عطش في الصحراء، يسعى منافسة الشاعر على مورد ماء، و بعد حوارٍ يحمل معاني إنسانية مع الذئب الظامّ، يتخلّى له الشّاعر عن المورد و يمضي في طريقه رفقا به و خوفاً عليه من الموت، ينشد النجاشي في قصيدته هذه:

و ماءٍ كلون الغسل قد عاد آجناً

قليل به الأصواتُ في بلد محلٍ

وجدتُ عليه الذئب يعوي كأنّه

خليعٌ خلا من كل مال و من أهلٍ

فقلتُ له يا ذئبُ، هل لك في في

يؤاسي، بلا منّ عليك و لا بخلي

فقال هداك الله للرشد إنما

دعوت، لما لم يأت سب قبل

فقلت عليك الحوض إني تركته

و في صفوه فضل القلوص من السجل

فطرب يستدعي ذئاباً كثيرة

وعديت، كل من هواه، على شغل

(الشريف المرتضي، ٢/٢١١).

وهناك رواية عن عبدالمطلب جد الرسول الكريم (ص)، أنه تخلى عن مصاحبة صديقه و قريبه، حرب بن أمية، لأنه قتل أحد اليهود بغير الحق، ثم لم يكتف بذلك، بل فرض عليه أن يدفع مائة ناقة دية لابن عم اليهودي القتيل، و هي دية ما كان يحلم بها إلا سادة قريش (الألوسي، ٢/٣٢٣):

نعم، هناك كثير من الأحداث و الشواهد تؤيد نزعة الإيثار و الوفاء والعفة عند كثير من عرب الجاهلية، بل تكذب الأحكام المطلقة و المتحاملة لبعض المستشرقين الذين وصفوا العربي الجاهلي بالطمع و الأنانية و حبّ الإمتلاك و شحّ العواطف و

كما نشاهد الشاعر الجاهلي «عروة بن الورد» زعيم مدرسة الصّعاليك في العصر الجاهلي يقول معبراً عن الإيثار:

و إني إمرؤ عافى إنائي شركة

و أنت إمرؤ عافى إنائك واحد

أهزأ مني أن سمنت و أن ترى

بجسمي مسّ الحقّ و الحقّ جاهد

أفرق جسمي في جسوم كثيرة

و أحسو قراح الماء و الماء بارد

(الديوان، ٣٩-٣٨).

و يقول أيضاً في الإيثار و أدب التعامل:

فراشي فراش الضيف و البيت بيته

و لم يلهي عنه غزال مقنع

أحدثه إن الحديث من القري

وتعلم نفسي أنه سوف يهجع

(المصدر نفسه، ٦١).

كما يقول حاتم الطائي في الإيثار:

وما أنا بالساعي بفضل زمامها

لتشرب ما في الحوض قبل الركائب

فما أنا بالطاوي حقيبة رحلها

لأركبها خفاً و أترك صاحبي

إذا كنت رباً للقلوص فلا تدع

رفيقتك يمشي خلفها غير راكب

أنحها فأردفه ، فإن حملتكما

فذاك، و إن كان العقاب فعاقب

(الديوان، ١٦-١٧).

ثم يقول في قصيدة أخرى:

و إني لأستحيي صاحبي أن يروا

مكان يدي في جانب الزاد، أفرعا

أقصر كفي أن تنال أكفهم

إذا نحن أهوينا و حاجتنا معا

أبيت خميص البطن، مضطمر الحشى

حياء، أخاف الذم أن أتضلعاً

(المصدر نفسه، ٦٥).

في هذه الأبيات نشاهد الإحساس المفرط في رفته و سموه ، حيال الآخر والسمو الخلفي والذي يدل على وجود مناخ من الثقافة الخلقية، و تهذيب المشاعر والسلوك، قد

أسهم في صقل المشاعر و تهذيبها من نزعات الجشع والأناية و ...

كما نلاحظ «السّمؤال بن حيان بن عاديا»، الشاعر الجاهلي، الذي ضرب به المثل، ف قيل «أوفى من السّمؤال» لأنه أثر أن يذبح ولده و لا يسلم لأعداء «امريء القيس» ما استودعه من مال و سلاح، يرسم لقومه صورة مشرقة في البذل و العطاء، يقول في ذلك:

فنحن كماء المزن ما في نصابنا

كهام و لا فينا يعدُّ بخيلُ

و ما أخدمت نارٌ لنا دون طارقٍ

و لا ذمنا في النازلين نزيلُ

(البستاني، ١/٣٤٥).

و نرى حائماً يقدم، بمساهمته الإنسانية و بإيثاره و رأفته الحانية، نموذجاً متفرداً، إنه يرتقي بالنزعة الإنسانية و القيم الأخلاقية إلى مستوى الكمال، بل إلى مستوي الأسطورة:

أ ماويّ ! إني ربّ واحدٍ أمه

أجرتُ، فلا قتلٌ عليه ولا أسرُ

(المصدر نفسه، ١/٣٠٢).

و نلاحظ زهير بن أبي سلمى، يرتقي بحكمته و نزعته الإنسانية إلى مستوى المصلحين الكبار، ليس فقط، في دعوته المتكررة إلى الحلم و الرفق و العدل و التعقل، أو البعد عن البغي و الظلم، بل في موقفه من الحرب و دعواته المتواصلة و الملحة إلى السلم، كما في قوله:

و ما الحربُ إلّا ما علمتم و ذقتم

و ما هو عنها بالحديث المرجّم

متي تبعثوها تبعثوها ذميمةً

و تضرّ إذا ضرّتموها فتضرم

فتعرككم عرك الرّحي بثفالها

و تلقح كشافاً ثمّ تنتج فتسم

فتنتج لكم غلماناً أشأمَ كلّهم

كأحمر عادٍ ثمّ ترضع فتفطم

(الديوان، ٨١-٨٢).

فهو في موقفه هذا، يعبر عن الإحساس العميق بالمسؤولية الاجتماعية، و عن التزامه الأخلاقيّ و الإنسانيّ تجاه الحياة و النّاس، و بهذا المقياس يمدح هرم بن سنان و الحارث بن عوف اللّذين كان لهما الفضل في سبيل الصلح بين عبس و ذبيان في حرب داحس و الغبراء، بما دفعاه من مال و إبل و جهد، دية لقتلى القبيلتين و سعيّاً وراء إطفاء نارالحرب و التغلب على آثارها، إنه يمدح فيهما الحكمة و الحلم و العقل والإيثار و الحسّ الإنسانيّ و السخاء و الحرّم و الإلتزام بالاجتمع و الحياة، كما يقول:

يمينا لنعم السّيدان وُجدتما

على كلّ حالٍ من سحيلٍ و مُبرم

تداركتما عبساً و ذبياناً بعد ما

تفانوا و دقّوا بينهم عطر منشم

و قد قلتما: «إن ندرك السّلم واسعاً

بمالٍ و معروفٍ، من الأمر نسلم!»

فأصبحتما منها على خير موطنٍ

بعيدين فيها من عقوق و مأثم

عظيمين في عليا معدّ هديتما!

و من يستبح كترّاً من المجد يعظم

ثُعفى الكلوم بالمئين؛ فأصبحت

ينجمها من ليس فيها مُجرّم

ينجمها قوم لقومٍ غرامةً

و لم يهريقوا بينهم ملء محجم

فأصبح يجري فيهم من تلادكم

مغانم شتى من إفال مُزَنَّم
(المصدر نفسه ٧٩-٨٠، البستاني ٨٥/١).

نتائج البحث

١- إنَّ الحكمة كانت ثابتة ماثلة في ثنايا الأدب الجاهلي، بما تحمله من معانٍ أخلاقية وإصلاحية، و ترددت أشعار كثيرة مفعمة بالحكمة عند فريق الإصلاح و التزعة الإنسانية من شعراء الجاهلية أمثال لبید بن ربيعة و زهير بن أبي سلمى و أوس بن حجر و ... الذين جندوا شعرهم و حكمتهم لإصلاح الواقع و تخلصه من مثالبه مكرسين في شعرهم مفاهيم و قيم العدل والإيثار و الحلم و الميل إلى المسالمة و كشفوا عما يحمله الظلم و البغي و القسوة و الحرب من نتائج وخيمة على الفرد و المجتمع، وعلى الحاضر و المستقبل، و على الظالم و المظلوم.

٢- ينقل الشعراء الجاهلي فضائل أهل الجاهلية و مثلهم العليا كما ينقل مثالبهم و ما اتصف به العربي الجاهلي من تعسف و سفه و غلظة و ... و يظهر لنا مباحاة العربي الجاهلي بالفضائل و مدى تعلقه و إعجابه بالحكمة و الحلم و العدل، بل إنَّ الدعوة في الأدب الجاهلي إلى هذه الفضائل تكاد تغلب دعوات التطرف و القسوة و حبّ الإنتقام و قد إنعكس هذا الأمر جلياً في أشعارهم.

٣- إنَّ الحكمة اتخذت جانباً متألقاً في شعر بعض شعراء الجاهلية، و تشير إلى أنَّهم كانوا أصحاب رسالة و أصحاب رؤية، وأنَّ الشعر ليس ترفاً و جدانياً فحسب، وإنما بصرعقلي و دأب فني، و رسالة إنسانية.

المصادر و المراجع

[١] القرآن الكريم

[٢] الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، مطبعة دار الكتب، ١٩٢٨ م.

[٣] الألوسي، بلوغ الأدب، مطبعة دار الكتاب الحديثة.

[٤] أبو تمام، ديوان الحماسة، مختصر شرح التبريزي، مطبعة محمد علي صبيح و أولاده، ١٩٥٥ م.

[٥] ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ.

[٦] إمرؤ القيس، ديوان، تحقيق د. محمد رضا مروة، الدار العالمية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤١٣ هـ. ١٩٩٣ م.

[٧] الأعشي الكبير، ديوان، شرح د. محمد أحمد قاسم، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤١٥ هـ. ١٩٩٩ م.

[٨] أوس بن حجر، شرح د. محمد يوسف نجم، دار صادر، الجامعة الأمريكية، الطبعة الثانية، بيروت، ١٣٨٧ هـ. ١٩٦٧ م.

[٩] البستاني، فؤاد إفرايم، المجاني الحديثة، دار المشرق، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٩٩٣ م.

[١٠] تآبط شراً، ديوان، إعداد طلال حرب، الدار العالمية، الطبعة الأولى، بيروت- لبنان، ١٤١٤ هـ. ١٩٩٣ م.

[١١] الخطيئة، ديوان، شرح د. يوسف عيد، دار الجيل، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤١٣ هـ. ١٩٩٢ م.

[١٢] حماسة البحتري، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٦٧ م.

[١٣] دشتي، محمد، نهج البلاغة، انتشارات آل علي (عليه السلام)، مطبعة بهار، الطبعة الثانية، ١٣٨١ هـ.

[١٤] الريشهري، محمد، العلم والحكمة في الكتاب والسنة، دار الحديث الثقافية، قم المقدسة، الطبعة الأولى، ١٣٧٦ ش.

- [١٥] الزبيدي، محب الدين، تاج العروس، تحقيق: عبد الستار فراج، وزارة الإرشاد والأبناء الكويتية، مطبعة حكومة الكويت، ١٣٨٥هـ.
- [١٦] الزمخشري، محمد بن عمر، الكشاف في تفسير القرآن، دارالمعرفة، بيروت.
- [١٧] زهير بن أبي سلمى، ديوان، شرح د. عمر فاروق الطباع، دارالقلم، بيروت- لبنان.
- [١٨] الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، منشورات جماعة المدرسين، قم المقدسة، الطبعة الخامسة، ١٤١٧هـ.
- [١٩] الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن الكريم، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
- [٢٠] طرفة بن العبد، ديوان، شرح د. عمر فاروق الطباع، دارالقلم، بيروت- لبنان.
- [٢١] الطائي، حاتم، ديوان، د. عمر فاروق الطباع، دارالقلم، بيروت- لبنان.
- [٢٢] الطوسي، التبيان، تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي، مكتبة الأمين، النجف الأشرف، الطبعة الأولى، ١٣٧٦ هـ.
- [٢٣] الشريف المرتضى، أمالي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٤م.
- [٢٤] عامر بن الطفيل، ديوان، رواية أبوبكر محمد الأنباري، دار بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ. ١٩٨٦م.
- [٢٥] عبيد بن الأبرص، ديوان، شرح أشرف أحمد عذرة، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤١٤هـ. ١٩٩٤م.
- [٢٦] فضل الله، محمد حسين، أسلوب الدعوة في القرآن، دار الملاك للطباعة و النشر، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة، ١٤١٨هـ.
- [٢٧] فضل الله، محمد حسين، الحكمة في خط الإسلام، بيروت، لبنان، مؤسسة الوفاء.
- [٢٨] قيس بن الخطيم، ديوان، تحقيق د. ناصر الدين الأسد، دار صادر، الطبعة الثانية، بيروت، ١٣٨٧ هـ. ١٩٦٧م.
- [٢٩] لبيد بن ربيعة، ديوان، تحقيق د. احسان عباس، الكويت، ١٩٦٢م.
- [٣٠] المفصل الضبي، المفضليات، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٢٠م.
- [٣١] ميرزا، علي أكبر، نهج الفصاحة، نشر تشاف، قم، ١٣٨٥ هـ.
- [٣٢] النويري، نهاية الأرب، وزارة الثقافة، مصر، ج ٧.

گرایش‌های حکمی در شعر جاهلی

غلامرضا کریمی فرد^۱، امید جهان بخت لیلی^۲

تاریخ دریافت: ۱۳۸۸/۵/۳۱

تاریخ پذیرش: ۱۳۸۹/۲/۱

واژه «حکمت» در ۲۰ مورد از آیات قرآن وارد شده و بیانگر یکی از الطاف خداوند نسبت به بندگان است. از این روست که وقتی جنبه‌هایی از «حکمت» نزد یک شاعر پدیدار می‌گردد، کلام را قدرت تاثیر و نفوذ می‌بخشد. حضرت رسول اکرم (ص) فرموده‌اند که: «حکمت گمشده ی مومن است» پس مومن در جستجوی اوست.

نگارندگان در این پژوهش، پیرامون حکمت در شعر جاهلی به بحث پرداخته و پاره‌ای از این گونه شعر را که برخوردار از مضامین حکمی بوده و بیانگر فضایل مردان آن روزگار است، بررسی نموده‌اند. حکمت در شعر جاهلی حاصل تجربه ی شخصی و برگرفته از رویدادها و تعاملات محیطی پیرامون شاعر است. این گونه شعرها معمولاً دارای معانی ساده، روانی الفاظ و متانت سبک‌اند.

واژگان کلیدی: حکمت، شعر جاهلی، گرایش‌های انسانی.

۱. استادیار دانشگاه شهید چمران اهواز

۲. دانشجوی دکتری دانشگاه شهید چمران اهواز